الشعر تعبيراً ووظيفة في التراث العربي

بقلم الدكتور
محيي الدين صابر

الشعر موسيقى ناطقة ، ومعنى هذا انها موسيقى مباشرة ، تتصل بحرفيتها في مستويات متشابهة ، وبايحاءاتها في مستويات متقاربة الى النفس

وهو موسيقى انسانية ذاتية ، ومعنى هذا ان مصدره الانسان ، ووسيلته الايقاعية نابعة من كيانه ، ومستبطنة من طبيعته ، دون عون خارجي ، وهو قبل ذلك وبعده صورة العاطفة البشرية المنغمة .

والشعر بهذه الخصائص اقرب تماسا والتصاقا بالنوازع الحنانة في النفس الانسانية . وكان الشعر، وما يزال،التعبير الاصيل ، عن تلك النوازع الحنانة ، والصورة الناطقة عن تلك العواطف المبهمة . فنشأ في رحاب التغييرات الحالمة، فجرى على لسان السحرة ، وتقدم الكهنة فمشى بين ايديهم، وانساب على لهوات العشاق ، وصاحب المثل الانسانية الكريمة في النفس البشرية فغنى لمواكب البطولات الملاحم الجسورة ، وحمل القيم الانسانية ونغمها .

والشعر متشابه الميلاد في الشعوب ، ومتشابه المكانة بين الفنون تاريخا ، فهو اول نشاط فني وعمل جمالي لجأ اليه الانسان للتعبير الناطق ، فكان بذلك اساس الثقافات الفنية ، فهو لا يتطلب اكثر من قلب حنان ، وعاطفة مستجيبة ، انسانية موهوب . والموهبة خاصة بشرية،توجد حيث وجد الانسان دون انتصار لمتى كان ذلك الوجود .

ومن الحق ان الموهبة تتسع بالصقل ، وتخصب بالدربة، ولكن العقل والدربة كليهما يعملان مع الموهبة فالموهبة هي الاساس العام للنشاط الفني.

والشعر ، اداته الكلمة . ولكنها الكلمة جميلة منغمة ـ الكلمة في اقصى طاقاتها الموسيقية والكلمة في اقصى حساسيتها الجمالية . فالجمال والموسيقى في الكلمة ، هما اللذان يكونان الطبيعة العضوية للشعر .

واذا كان الشعر ، كتعبير قيدته طبيعته في مجال خاص ، فان تلك الطبيعة نفسها . قد حددت الى مدى كبير ، طبيعة وظيفته ، فاستأثر بالترجمة عن وساوس النفس واشجانها وبهجاتها وآمالها وارتبط نشأة وتطورا بالنداءات المباشرة للانسان الشاعر ، وكانت الحياة ذات يوم تدور حول فردية الانسان ، فلم تكن العلاقات البشرية بهذه السعة ، ولم تكن التنظيمات الاجتماعية بهذا التعقيد ... لم يكن العالم وحدة فكرية ، ولا وحدة اقتصادية ، ولم يكن الزمان والمكان بهذا الهوان ... واتساع المعرفة الانسانية وامتداد نشاطه ، وتعدد علاقاته ، وتداخل مصالحه ، كل ذلك وضع القيم الفكرية كلها موضع لجدل والنقد .

وتعرض الشعر كقيمة فنية وفكرية لهذه التجربة . ونوقشت طبيعته العضوية ، هل الجمال مطلق ام هو نسبي، وهل الموسيقى لا تتكامل ، ولا توجد الا في النطاق الموروث ، ونوقشت وظيفته ، هل يظل الشعر يدور في مجاله التاريخي ظلا للنفس البشرية ووساوسها مستهدفا متعة التعبير عن النزوات المباشرة ، ومتعة الجودة الذاتية ، ام يتسع ويمتد في الانسان الجديد وعلاقاته المعقدة الواسعة ، ايستهدف الفرد ام يستهدف المجتمع ؟

كل ذلك مما طال فيه الجدل ، واتسعت له المناظرات .

والشعر العربي ، عاش كل هذه التجارب ، وامتحن بكل هؤلاء امتحانا ، هو في بعض الاحيان عسير ومهما يكن من امر ، فان هناك وقفات قصيرات في هذا المقام ، لا معدى عنها ولا محيص ..

فالشعر ، كفن ، غير قابل للاعادة ، كعمل خالق من اعمال الفنان ، لا يمكن وصفه بالموضوعية فهو عمل ذاتي وسيظل كذلك ، ما دام يقوم به انسان شاعر وما دامت القطعة الشعرية التي يقولها ، لا تتكرر ولا تعاد فهو من ناحية منبعه، ككل الفنون ذاتي ...

والى جانب هذا ، فانه قد لصق بالشعر لصوقا تاريخيا، الارتباط بين هذه الطبيعة ، وبين وظيفته التي كانت التعبير المباشر عن الشاعر الذي هو فرد له اشجانه وهمومه ومباهجه .. وليس في رأيي ، شيء من التناقض ، بين ما يدعيه اهل الفن للفن، واهل الفن للمجتمع ، لاننالو قدرنا ان الشعر يبدأ من الشاعر ، فالذي يتطور اساسا هو الشاعر، لا الشعر ، فالشاعر اليوم كانسان في مجتمع متعدد العلاقات غير الانسان الشاعر في مجتمع بدائي محدد العلاقات ، فلا سبيل الى تطوير الشعر الا عن طريق الشاعر نفسه في علاقاته . فتعبير الشاعر الامين اليوم ، عن نفسه ، هو تعبير عن المجتمع ، لان نفسه ليست الا صورة هذه العلاقات المعقدة ... فالموضوع الحقيقي هو الى اي حد يستوعب الشاعر العلاقات الاجتماعية والى اي درجة يكون وعيه بها ، وادراكه لها، وتفاعله معها؟ وكل عمل لا يستهدف، ولا يحقق الامانة التعبيرية فيما حوله ، هو عمل صناعي ، يفقد عنصرا هاما من عناصر الفن بشكل عام . لان العمل الفني انما يستمد حيويته وخلوده ، من الصدق الذي يترجم به ، ومن التجربة

التي يعيشها .

اما الطبيعة العضوية للشعر ، فما يشك احد اليوم ،ان القيم الجمالية ، قيم نسبية ، والقبيح في مكان يكون جميلا في مكان آخر ، وان اللغة كائن حي يتطور ، وأن الكلمة شديدة الصلة بالمعاني التي تؤديها ، وأن كثيرا من تلك المعاني ، كانت صورا لمجتمعات اندثرت ، ونشأت مجتمعات ذات معان جديدة ، فالتمسك بلغة شاعرية تاريخية لا مكان له . . . ان جمال الكلمة من جمال المعنى الذي تؤديه ، وقليلا ما تؤدي الكلمة الجميلة معنى قبيحا .

فالقيمة الجمالية ، قيمة متحركة ، وقيمة نسبية .

اما الموسيقى ، فهي لا سبيل الى التجاوز عنها ، ما دام هناك شعر . ان كل المحاولات التي حاولها المجددون والمحدثون ، لم تؤد الى جديد ، ولا الى حديث ، والشعر المنثور ، شيء لا نناقشه في هذا المجال ، فهو ضرب من ضروب النثر .

كل المحاولات التجديدية كانت في التحرير من القافية ، التي تشكل المقاطع النهائية في الجمل الموسيقية . اما العروض ، الموسيقى نفسها ، فلم تصب في كيانها ، وكل ما هنالك ، أن طريقة كتابتها ، واسلوب توزيعها قد تغير . وأن بحورا من الشعر العربي ، استعملت اكثر من البحور الاخرى ، لانها اقدر على الحركة ، والتعبير عن الصور التي يتناولها القراء المحدثون .

فالمعركة ليست معركة اساسية ، واسباب الالتقاء ممكنة ويسيرة .

ومع هذا ، فان الشعر ، ظل ثقافة ارستقراطية ، وان كان اقدم الفنون واكثرها بدائية ولم يكن مصدر هذه الارستقراطية ، الا انها موهبة ،وقليلا ما تكون الطبيعة ديموقراطية في توزيع المواهب !

ومن ناحية اخرى ، فان الشعر كتعبير ، لا يتسع لما يتسع له النثر لانه تعبير خاص ، وهو ان فقد هذه الخاصية، انقلب الى نثر . . .

والشعر العربي ، كان ديوان العرب ، وكان لسانهم ، وسجل احداثهم ، وكان الشعر العربي ،شعرا وظيفيا من الطراز الاول ، فكان لكل قبيلة شاعر بل كان الشعر العربي يقف ليؤكد الحقيقة العربية امام الفرس والرومان فحين يفد العرب الى كسرى ، لم يكن الوفد يمثل القبيلة، بل يمثل العنصر العربي . وأمثلة ذلك في الشعر القديم كثيرة .

ومن الشعر العربي ، عرف العالم ثقافة العرب ، ونوع حياتهم ، وكانت سوق عكاظ ، واسواق العرب الاخرى ومواسمهم ، هي المؤتمرات التي تنظم وتجمع الحضارة العربية من اقصى الجزيرة الى ادناها .

فسجل الشعر الفضائل العربية ، والرذائل العربية ، وتحدث عن المثل العليا ،وأبرزها ، وتحدث عن الرذائل وهجاها ، كان الشعر صورة للبداوة العربية بسماحتها وصفاتها . وقسوتها وضراوتها . . .

فاذا جاء الاسلام، للعالم كله ، وحمل عبئه العرب بدمائهم وارواحهم واشتد وعيهم بكينونتهم العربية كان هناك اساس لهذا العمل التاريخي . كان هناك وعي بالشخصية العربية وبالخصائص العربية . نشأت العربية فيما بينها وبين هذه القبائل وبين العالم الخارجي.

كانت القصيدة العربية تقف امام القصيدة العربية بين القبائل تمثل الشخصيات المحلية . وكانت القصيدة العربية ايا كانت شخصيتها تقف امام العالم الخارجي لتمثيل هذه القبائل ، لتمثل الشخصية العربية . . .

وكان الشعر الاموي شعرا ضخم الخصائص العربية وابرز العصبية العربية ،مما وضع الشخصية العربية في العالم الاسلامي المختلط ، موضع السيادة ، فنشأت عن ذلك في العصور التالية الافكار الشعوبية التي بدأت تقاوم من داخل الاجهزة الحكومية ومن داخل الثقافة الفكرية الشخصية العربية ، التي تحددت في اطار الفكرة الاسلامية ، ووضحت معالمها .

فالشعر العربي والحق نؤكد ، كان الدعامة التي قام عليها النداء العربي والتي بنيت عليها الشخصية العربية وما يزال حتى اليوم ، يقوم بهذا الدور في التراث العربي المشترك فهو من الثقافات التي لم يدركها التغيير لاسباب عضوية، أهمها الموسيقى والتي بقيت من تراث العرب اكثر مما بقي تراث فكري آخر ، وليس أدل على حيويته من أنه كان يمنح من اقرب سبيل الى الدعوة العربية ، ما تصدر به كل الحركات التحريرية ، للعرب في كل مكان . .

محيي الدين صابر

اقـــرأ

اعمق دراسة ادبيـــة عـــن

الشـــاعر

ايليـــا ابو ماضي

في كتاب « الشعر العربي في المهجر »

تأليف

الدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم

الناشر : دار صادر ــ دار بيروت